مظاهر من التصنيف البينيّ

في كتاب (الحيوان)

نشرت صيغته الأولى في مجلة البيان، الكويت

العدد ٥٨٦، شعبان ١٤٤٠هـ/أيار (مايو) ٢٠١٩م.

من يستعرضْ مدونات التراث العربي –ولا سيما في الأدب – يجدْ التصنيف البيني[١] أحدَ الأصلين اللذين سار عليهما القدماء، بل ربما كان التصنيف التخصصيُّ فرعًا.

نعم لقد ابتدأ التصنيفُ تخصُّصيًّا، كالذي نجده في جمع أشعار القبائل عند أبي عَمْر الشيباني وأبي سعيد السكّري، وما نجده في فحولة الشعراء المنسوب للأصمعي، وكتب اللغة الأولى له ولغيره، وهي كثيرة، منها كتاب البئر، وكتاب النخل، وكتاب السلاح وهلمّ جرًّا.

غير أن التصنيف البيني ضرب بجرانه بعد ذلك، عند أوائل المصنفين الكبار من أهل الأدب، وسوف أضربُ مثالين بكتاب المحبّر لابن حبيب (ت٢٤٥هـ)، فهو تصنيفٌ بينيٌّ جامعٌ، ففيه ذكر شيءٍ من سيرة النبي ﷺ[٢] وبعض أيام العرب، وأنسابها وأخبار رجالها[٣]، وتراجم الرجال[٤]، وأخبار الخلفاء[٥]، وفيه مسائلُ تتصل بأصل اللغات وأسباب اختلافها[٦]، ونوادرُ من التاريخ (من حرّم في الجاهلية الخمر والسُّكْر والأزلام، وأصحابُ شُرَط الخلفاء، وأسماء المصلَّبين، ومن نُصِب رأسه من الأشراف، مثلًا)[٧]، وفيه مادة

---

(١) يُراد بالتصنيف البيني تقاطعُ المعارف والعلوم في الأثر الواحد، وتداخلها وأخذ بعضها من بعض، ويعرّف بعضهم التخصصات البينية بأنها "نوعٌ من الحقول المعرفية الجديدة الناشئة من تداخل عدة حقول (أكاديمية) تقليدية". جامعة الأميرة نورة، الدراسات البينية، ٦. ومن أهدافها دمج المعرفة، والإبداع في طرق التفكير، وتحقيق التكامل. انظر: المرجع السابق، ٩-١٠.

(٢) انظر: ابن حبيب، المحبّر، ٤٧، ١١٠، ١١٦، ١٢٥، ٢٦٨، ٤٣٢، ٤٧٤.

(٣) انظر: السابق، ١٦٧، ١٧٨.

(٤) انظر: السابق، ١٣٧.

(٥) انظر: السابق، ١٢- ٤٤.

(٦) انظر: ابن حبيب، المحبّر، ٣٨٢.

(٧) انظر: السابق، ٢٣٧، ٣٧٣، ٤٧٨، ٤٩٠.

شعرية كبيرة[١]، وأطرافٌ من تاريخ الأمم السوالف من العرب وغيرهم[٢]، وبعضُ اللطائف من أخبار الرجال (مثلًا: المتعمّمون بمكة مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم)[٣]، ومن أخبار النساء (مثلًا: امرأة تعُدُّ عشرة من الخلفاء كلهم لها محرم، ومن تزوّج ثلاثة أزواج فصاعدًا)[٤]، ولم يخلُ كذلك من بعض الخرافات (أسماء ولد إبليس) [٥]. وعليه فهو مصنّف بينيٌّ لا شك فيه، لم يختصّ بعلم واحد، ولا فنٍّ واحد.

والمثال الثاني (الكامل في اللغة والأدب)، وعنوانه يوهم أنه لن يتجاوز هذين العِلْمين –إن جاز عدّهما علمين فحسب– والحقُّ أن الكامل جمع تاريخًا (بعض تاريخ الخوارج الذي لا نجده عند غير المبرّد)، ونحوًا، ولغةً، وأدبًا، وهذا الأدب متفرّع إلى فنون، ففيه الشعر والشعراء، والكُتّابُ وبعضُ آثارهم، والخطباءُ وخطبُهم، والأخبار والنوادر وهلمّ جرًّا.

فإذا مضى مستعرضُ التراث قُدُمًا استبان له انتحاءُ المصنفين التخصصَ من بعدُ، ولنأخذ مصنفات الثعالبي نماذجَ، فهو فيها أديبٌ متخصّصٌ بمفهومنا العصري، فكلُّ كتبه أدب وشعر غالبًا، ولا يجدُ الناظر فيها ما ينحو بها نحو التصنيف البيني. وكذلك نجد النزعة التخصصية في نتاج فئامٍ من المؤلفين على امتداد الزمان، كالعماد الأصفهاني، والصفدي وابن بسام الشنتريني والمقّري وغيرهم.

أما أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فيكادُ يكون رأسًا في شُعب كثيرة من التأليف، وحسبه في هذا أن يُذكر كتاباه (البيان) و(الحيوان) ليُقرّ السامع بصدق هذا الحكم. فقد كان من كبار أعلام الفكر البينيّ في تاريخ الثقافة العربية[٦].

والذي أتوفّر على بيانه ها هنا هو ما ظهر في آثاره من مظهر بينيّ في التصنيف، ذلك أنه جمع فيها عدة علوم وفنون، ومزج فيها أشتاتًا من معارف زمانه، وكان كتابه الموسوعي (الحيوان) خير أنموذجٍ على هذا الذي أنا بصدده.

---

(١) انظر: السابق، ٢٧٣، ٣٢١، ٣٥١.

(٢) انظر: السابق، ٣٦١، ٣٦٤، ٤٦٦، ٤٦٧.

(٣) انظر: ابن حبيب، المحبّر، ٢٣٢.

(٤) انظر: السابق، ٤٠٥، ٤٣٥.

(٥) انظر: السابق، ٣٩٥.

(٦) انظر: صالح بن رمضان، التفكير البيني، أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية وآدابها، ٣٥٤.

إن أبا عثمان أديب واسعُ المعرفة، مهتمٌّ بضروب من العلم والفكر، وقد تقاطعت في البيئة التي عاش فيها جميعُ الروافد الحضارية في الشرق القديم[١]. ولأنه أديبٌ في المقام الأول، جاء التصنيف عنده منفتحًا –وإن غلب عليه الأدب– على مظاهر النشاط الإنساني، فالأدب عنده يستوعب أشكالًا من الخطاب ويستلهمها، فمصنفاته بذلك جسرٌ بين الثقافات[٢]. ثم إنه في مجمل مصنفاته ينزع إلى تكوين ثقافة عربية شخصية منشودٍ إحداثُها بوساطة عملية اصطفائية، تجري وسط عناصر الثقافة العامة الصادرة عن مصادر شتى، فغرضه جمع ما لا يجوز للمثقف جهله، وما لا يسوغ للنبيل إهماله من المعارف العامة[٣].

والذي يجعل الجاحظ إمامًا في هذا النحو من التأليف هو أن البينية متسرّبة في تصنيفه تسرّبًا، مُداخَلٌ بعضها في بعضها، مشتجر فيها كلُّ فن بالفن الآخر، "وقد يُوهم اسم كتابه أنه خُصّص بالحيوان، وما يمتُّ إليه بسبب، ولكنّ الحقّ أن الكتاب مَعْلمةٌ واسعة، وصورةٌ ظاهرة لثقافة عصره، فقد حوى طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية، كما تحدّث في سياسة الأقوام والأفراد، وتكلّم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية"[٤].

فبينا تراه يستفتح بابًا لضرب من ضروب الحيوان، تجده يمضي رخيًّا ممتعًا مستمتعًا بالدخول في علم آخر، وخذ باب الضب مثلًا، فإنك واجدٌ فيه أقباسًا من علم الحيوان إذ وصف الضب بقوله: "ولما علم [أي الضبُّ] أنه نَسّاءٌ سيّئُ الهدايةِ لم يحفرْ وِجارَه إلا عند أكمة، أو صخرةٍ، أو شجرةٍ؛ ليكون متى تباعد من جحره لطلب الطُّعم، أو لبعض الخوف، فالتفت ورآه، أحسنَ الهدايةَ إلى جُحره"[٥]، ثم خرج في تضاعيف باب الضبّ إلى اللغة، فذكر اشتقاق لفظ الضبّ، ثم أدرج فيه شيئًا من الأدب، فأورد بعضَ الشعر الذي ذُكر فيه، والأمثالِ، والخرافاتِ، وبعضَ النوادر.

وللنوادر في كتاب الحيوان مقامٌ رفيع؛ ذلك أن مذهب الجاحظ المشتهَر هو أن يوشّي الجدّ بالهزل، محتجًّا لها، عائبًا للعائب عليها[٦]، ومن أجل هذا أعدّ كتابه مجلًى لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية، في

---

(١) انظر: صالح بن رمضان، مرجع سابق، ٣٥٤.

(٢) انظر: نور الدين بنخود، الدراسات الأدبية (مرجع سابق)، ١٨١.

(٣) انظر: شارل بللا، الجاحظ، ٣٨٤.

(٤) انظر: عبدالسلام هارون، تهذيب الحيوان، ١١. بتصرف.

(٥) انظر: الجاحظ، الحيوان، ٤٢/٦. ولستُ أدري ما صحّة قوله هذا!

(٦) انظر: الحيوان، ٢٥/١.

طبقاتها الدنيا، ذلك أنه يذكر بعض أهل المهن المحتقرة، ويورد أسماءَهم وبعض مُلحهم التي لا تؤخذ مأخذ الضحك والتندّر فحسب، بل هي دالّة على ملامح اجتماعية عميقة في مجتمع ذلك العصر، ومنهم مسبِّحٌ الكنّاس الذي أورد بعضَ أقواله المضحكة، ولكنها تنطوي على جدّ جادّ. ولولا ما فيها من المجون لأوردتها[١]. وكان هذا المسلك في ابتغاء المعرفة من الحُشوة والطغام قد جعل بعض دارسيه يقف به طويلًا، ويستنبط منه أن له أثرًا في ملاحظاته الدقيقة التي كسبْتها سماتٍ فريدة[٢]. وسوف أشيرُ لاحقًا إلى كثرة ما يندرج في كتابه من مسائل كهذه في علم الاجتماع.

إن كتاب الحيوان معرِضُ علوم وفنون وآداب، وليست القضية في اجتماعها فيه، فذلك أمر قد يستطيعه كثيرون، ولكنها في اشتجار تلك العلوم والفنون والآداب اشتجارًا يكشفُ أن لكل علمٍ صلةً في ذهن الجاحظ بالعلم الآخر، وأن لكلّ فنٍّ علاقةً بالفنون الأخرى، وأنها تتساوقُ معًا كاشفةً أنها واحدةٌ وإن تعددت، ومفردةٌ وإن رُئيتْ مجموعَ علوم وفنون وآداب.

وقارئ هذا الكتاب الموسّع يستنبط شواهد ذلك بالنظر المتأنّي، والتأمّل الحاذق، فلو نظر مثلًا في النوادر التي كلف بها الجاحظ، لوجدها شديدة الصلة بما قبلها؛ ومن شواهد ذلك ما نقله عن رجل من الحكماء إذ قيل له: "متى عقلتَ؟ قال: ساعةَ ولدتُ، فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أما أنا فقد بكيتُ حين خفتُ، وطلبت الأكلَ حين جُعتُ، وطلبتُ الثديّ حين احتجتُ"[٣]، فما صلتُه بما قبله؟ أهو خروج لا يتصل بسياقه؟ كلا، لقد جاء به بعد أن قال: "ولها [أي للطير] منطق تتفاهم بها حاجاتِ بعضها إلى بعض، ولا حاجةَ إلى أن يكون لها في منطقها فضلٌ لا تحتاجُ إلى استعماله". فنقلُه كلام ذلك الحكيم يقوّي رأيه هذا؛ فخلاصة ما قاله الحكيم أن المرء في صغره لا يحتاج إلى فضل منطق، وأنه يُفهِم حاجاته في صغره وإن لم يتكلم.

ومن الشواهد كذلك نقلُه خبرًا طريفًا عن بخل فِيلَوَيْهِ السَّقَطي حتى على أمه، حتى قيل: إنه كان يُجري على أمه في كلّ أضحى درهمًا[٤]، والذي دعاه إلى ذكره أنه في باب الفيل، وقد حرص على أن يذكر بعض أعلام الأناسيّ وغيرهم ممن حوت أسماؤهم شيئًا من اسم الفيل، كباب الفيل بالكوفة، وحمّام فيل،

---

(١) انظر: الجاحظ، الحيوان، ٢٤٥/١.

(٢) انظر: شارل بللا، مرجع سابق، ٣٣١، ومحمد كرد علي، أمراء البيان، ٣٦٧.

(٣) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٥٦/٧.

(٤) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١٩٠/٧.

ومن الناس عنبسة الفيل وأبو الفيل الرافقي[١]. وقل مثل هذا –في علاقة النوادر بما في سياقها– عن إيراده تأويل ابن سيرين لرؤيا من رأى أنه يركب الفيل، إذْ قال: أمرٌ جسيمٌ لا منفعة له[٢].

ولا شك في أن التصنيف البيني عند الجاحظ هو أمشاج ثقافات، وطرق تفكير، أملتها طبيعته العقلية التي أخذت من كل فنّ، وأدركت كثيرًا من العلوم التي كانت شائعةً في عصره، ولم يكن له أن يزورّ عنها، بل شارك فيها، فكان ذلك المعتزليّ الجدِل، والأديب المفنّ، والعالم المتبصّر.

وعلى ذلك فالبينية عنده نمط آخر مخالفٌ لما يُراد من البينية بمفهومها الجديد، الذي يجعلها حاجةً ماسّةً "يقتضيها البحث، ولا سيما في الموضوعات المركبة والمعقدة التي تتطلب نظرًا من زوايا متعددة، وبطرائق مختلفة"[٣]. نمط البينية عنده أخذٌ من كل علمٍ بطرف، وربطٌ للعلوم بعضها ببعض، ووصلٌ للقاصي بالداني؛ لأنه يرى ذلك هو التصنيفَ الحقّ.

إن هذا الكتاب الموسوعي إذن يصل العلوم بعضها ببعض، حتى ليكاد القارئ يشكُّ في أنه لم يكن اسمًا على مسمّى، ولم يصدق عنوانه على مضمونه، أقول (يكاد يشك) تقريبًا لوجهة النظر، وإلا فالكتاب عن الحيوان، غير أن التكامل المعرفي فيه يدعو إلى ادّعاء ذلك؛ لتحقيق بينيته المبكّرة في تاريخ الفكر والثقافة العربيين.

إن للجاحظ في كتابه هذا عناية بالغة بعلم اللغة، وهو كثيرًا ما يعلّق على مسائل فيها ما تزال صحيحةً واقعية، كقوله: "إن من أعون الأسباب على تعلّم اللغة فرطَ الحاجة إلى ذلك، وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغُ فيها والتقصيرُ عنها"[٤].

---

(١) انظر: السابق، نفسه.

(٢) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١٩١/٧.

(٣) انظر: نور الدين بنخود، دليل الدراسات البينية، ٢٧.

(٤) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢٩٠/٥.

وله كذلك عنايةٌ بعلم اللغة النفسي الذي يدرس العوامل النفسية في اكتساب اللغة، وعوامل تمكنها وسبل أدائها وإنتاجها، ويدخل في هذا حديثه عن مراعاة التفاؤل بالتسمية، وعلة تسمية اللديغ سليمًا[١]، والعلةِ في صعوبة بعض اللغات[٢].

ومن أجل اهتمامه بالنفس وعنايته بها، ظهر الأثر جليًّا في صياغته قصصًا تندرج في الأدب النفسي، وفي كتاب الحيوان نماذج كاشفةٌ لعمق معرفته، وبراعته الفنية، حتى عُدّ سابقًا إلى هذا اللون من الأدب[٣]. وبهذا يندرج في مظاهر التصنيف البيني تعليقاته المنبئة عن أثر بعض أعمال الجوارح في النفس، كحديثه عن أثر الضحك، وقوله عن السرور: إن له في النفس أكرم أثر[٤].

وله صلة بعلم التاريخ إذ ذهب يذكر بعض ما وقع في أيام العرب، ويشير إلى بعض النوادر التاريخية، كنقله خبرًا عن امرأة وافرة اللحية، "وأنها دخلت مع نساءٍ متنقبات إلى بعض الأعراس لترى العروسَ، وجَلوةَ العروس، ففطنت لها امرأة فصاحت: رجلٌ والله! وأحال الخدمُ والنساء عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلة إلا الكشفَ عن فرجها، فنزعن عنها، وقد كادت تموت"[٥]. إن هذا التنقل ما بين علم وفن أدبي ونادرة تاريخية "خير ما يمثل اختلاط الأديب والعالم في شخصيته الغنية وأسلوبه الفريد"[٦]. ومن النوادر التاريخية ما ذكره عن جيش ابن الأشعث وأنه كان يُقال له (جيش الطواويس)؛ لكثرة من كان فيه من الفتيان الصِّباح[٧]، وقوله: إن العربَ لم تسمِّ بموسى إلا في الإسلام(٨)، وأنها أرّختْ بسيل العرِمِ(٩)، وأن من قبائل العرب من كان لا يرى للبيت حُرمةً[١٠].

---

(١) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٤٣٩/٣، ٢٥٣.

(٢) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢٨٩/٥.

(٣) انظر: محمد المبارك، فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ، ٤٥. و: عبدالله باقازي، القصة في أدب الجاحظ، ١٥١-١٥٢.

(٤) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١١٩/٥، وانظر: عبدالله باقازي، مرجع سابق، ١٥٢.

(٥) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١١٥/١.

(٦) انظر: محيي الدين اللاذقاني، آباء الحداثة العربية، ٧٤.

(٧) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢٤٥/٢.

٨() الجاحظ، مصدر سابق، ٢٨٠/٤.

٩() الجاحظ، مصدر سابق، ٢٩٩/٤.

(١٠) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢١٦/٧.

وفي كتاب الحيوان تظهر طريقة الجاحظ المقارنة بين الأمم وآدابها وخصائصها، فهو رائدٌ من رواد هذا الفنّ، قبل أن تتطور دائرة نشاطه، وتتسع لتصبح تخصصًا قائمًا[١].

وللجاحظ إسهام في كتابه هذا في بعض مسائل النحو، ومسائل علم الدلالة، ومنه نقله عن مجاهد كراهة قول مُسيجِدٍ ومُصيحف، قال: "وربما صغّروا الشيء من طريق الشفقة والرقة، كقول عمر: أخاف على هذا العُريب، وليس التصغيرَ بهم يريد...وربّ اسم إذا صغّرتَه كان أملأَ للصدر...وربما كان التصغيرُ خِلقةً وبِنيةً، لا يتغيّر، كنحو الحُميّا، والسُّكَّيت"[٢]، ومن علم الدلالة نقله كراهيةَ ابن عباس قول (قوس قُزح)، قال: وهو شيطان، كأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وكان أحبَّ ان يُقال: قوس الله، فيرفع من قدره[٣].

بل إن للجاحظ في كتابه هذا صلةً بما يسمى (علم اللغة الاجتماعي)، فإن إشاراته إلى إيراد النادرة بلحنها ذاتُ صلة بعلاقة اللغة بالمجتمع، نقل كلمةً للنظّام فيها: "إن كنت سبْعْ فاذهب مع السباع" ثم قال: "ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون...إن الإعراب يفسد نوادر المولَّدين، كما أن اللحنَ يفسد كلام الأعراب"[٤] وهذا الجنوح الطريف إلى ذلك التنبيه والتعليل يسِمُ نص الجاحظ، حقًّا، بأنه كتابة أدبية، وإن كانت نسبة إلى الأدب بمفهومه القديم، كتابةٌ تدخل في نطاق المنتج الثقافي الذي يتجه إلى دوائر التبادل الاجتماعي، وهذا المنتج يحافظ، إذْ يُستهلَك، على الثقافة، ويثبّتُ مكوّناتها في حياة الجماعة[٥]، بل إنه يتجاوز ذلك إلى نقد الثقافة، وتقويمها.

ويدخل في علم اللغة الاجتماعي ما نقله من أسباب تسمية العرب أبناءهم لكلب وحمار وحجَر وجُعل، قال: هو على التفاؤل بذلك، فيتفاءل بالحجَر الشدة والصلابة، والبقاء والصبر، وبالحمار الجلد والقوة، وبالذئب الفطنة والمكر، وله في ذلك حجاج طريف مع صاحب هذا الرأي[٦]. ثم إنه أشار إلى تسمية الرعيّة أولادها بأسماء الملوك ونسائهم، قال: "وعلى ذلك صار كلُّ علي يُكنى بأبي الحسن، وكل عمرَ

---

(١) انظر: ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ١٨٢.

(٢) الجاحظ، مصدر سابق، ٣٣٦/١-٣٣٧.

(٣) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٣٤١/١.

(٤) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢٨١/١-٢٨٢.

(٥) انظر: نور الدين بنخود، الدراسات الأدبية والتخصصية البنيية، ٨٩.

(٦) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٣٢٤/١.

يُكنى بأبي حفص"، قال: "والأسماء ضروبٌ، فمنها ما يكون على شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمرَ فيسمي ابنه عُميرًا، ويسمي عُمير ابنه عمران، ويسمي عمرانُ ابنَه معمَرًا"[١]. ومن الطريف في هذا ذكرُه أنهم كانوا يقولون "كيف النعجة؟ يريدون الزوجة"[٢] أورده في معرض حديثه عن قوله تعالى على لسان داود: ﴿إِنّ هَذَا أَخِيْ لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُوْنَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاْحِدَةٌ﴾، قال: ولم يقل: إن هذا أخي له تسع وتسعون عنزًا ولي عنزٌ واحدة[٣].

وذلك كله كاشفٌ أن التصنيف البيني عند أبي عثمان "آيةٌ من آيات المرونة والتفاعل بين الأفكار والحقول المعرفية"[٤]. فهو به يقرّب العلوم بعضها من بعض، ويستدني الفلسفة، ويسهلها للمتلقي، ويمزجها بالأدب والشعر[٥].

وفي الكتاب تقييد مهم لبعض مظاهر نشوء الألفاظ والتطور اللغوي، كإشارته إلى بعض ما ترك الناس من ألفاظ الجاهلية، واستبدال ألفاظ بألفاظ، وتسمية الشيء باسم ما يلابسه، كتسمية الخبزة مّلّةً والجملِ راوية، وقولهم بنى على المرأة أي تزوج، وإنما أصله أن المتزوج يبني على الزوجة قبة أو خيمةً[٦]. هذا زَيدً على ما عرض له من آفات اللسان التي تجني على وضوح لغته وسلامتها، كالحُبسة والعجلة والعُقدة[٧].

ويدخل في علم اللغة مما أثاره الجاحظ حديثُه عن ضيم اللغة الثانية للغة الأولى، يقول: "ومتى وجدناه تكلم بلسانين، علمنا أنه أدخل الضيمَ عليهما؛ لأن كلّ واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذُ منها"[٨]. وهذه بلا شك إشارة مبكّرة في التراث العربي إلى هذه المسألة التي يكثر الحديث فيها. وبهذا كلّه يعدّ الجاحظ

---

(١) الجاحظ، الحيوان، ٣٢٦/١-٣٢٧.

(٢) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٤٥٥/٥.

(٣) انظر: السابق، نفسه.

(٤) انظر: صالح بن رمضان، مرجع سابق، ٣٥٣.

(٥) انظر: محمد كرد علي، مرجع سابق، ٣٧٤.

(٦) انظر: الجاحظ، ٣٢٧-٣٣٤.

(٧) انظر: ميشال عاصي، مرجع سابق، ٦٩-٧٠.

(٨) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٧٦/١.

أهمَّ من أسهم في مفهوم الفكر البينيّ، وهذا ما دفع بعضَ نقاده إلى دراسته وَفقَ منهج بينيّ، حتى قيل: إن مدوّنة الجاحظ وحدها تكفي للكشفِ عن ثراء الثقافة العربية الإسلامية لعهده[١].

ومن مظاهر البينية ما نجده من الصلة بعلم الاجتماع، كاعتنائه بتقييد الخرافات، والخرافة معدودة عند بعضهم علمًا، ومن ذلك إيراده، في الحوار بين صاحب الديك وصاحب الكلب، زعمَهم أن الجِرِّيَّ [لضربٍ من السمك] والضِّبابَ كانت أمّتين مُسختا، وأن الإربيانة كانت خياطةً تسرق السلوك، وأن الفأرة كانت طحّانةً، وأن الحية كانت في صورة جمل[٢]، وذكره خرافة خصومة الضب والضفدع[٣].

ويندرج في علم الاجتماع ما أشار إليه من ظاهرة (جمع الكتب)، والعلاقة بها، وعلاقة ذلك بنضج العقل، نقل عن أبي عَمْر بن العلاء أنه قال: "ما دخلتُ على رجل قطّ ولا مررتُ ببابه، فرأيته ينظر في دفتر وجليسُه فارغ اليد، إلا اعتقدتُ أنه أفضلُ منه وأعقل"[٤].

ويدخل فيه أيضًا حديثه عن العين[٥]، وذكرُه للزواج النهاريّ[٦]، وهو ألا يكون الزوجُ مع امرأته إلا في النهار، وهذا تقييد مهمٌّ لضربٍ من ضروب العلاقات الزوجية آنذاك.

ومن المظاهر المتصلة بهذا العلم اعتناءُ الجاحظ بتصوير عاد المجتمع العربي القديم، كالذي نقل من ازدراء أهل البادية لازدراع النخل[٧].

وقد تكون الصلةُ بهذا العلم أوثقَ؛ من جهة اهتمام الجاحظ بتقييد مشاهداته عن الناس والحياة، وهذ أمرٌ مشهودٌ له فيه بالبراعة والتجلّي، يقول عن عداوات الناس قولًا يكشفُ عن التفكير الاجتماعي الناضج عنده: "وأسباب عداوات الناس ضروبٌ، منها المشاكلةُ في الصناعة، ومنها التقاربُ في الجوار، ومنها

---

(١) انظر: صالح بن رمضان، مرجع سابق، ٨٥.
(٢) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢٩٧/١.
(٣) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١٢٥/٦.
(٤) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٦٠/١.
(٥) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١٤١/٢.
(٦) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٤٦٧/٥.
(٧) انظر: الجاحظ، الحيوان، ٢٦٦/١.

التقاربُ في النسب، والكثرةُ من أسباب التقاطعِ في العشيرةِ والقبيلة، والساكنُ عدوٌّ للمُسكِن، والفقيرُ عدوٌّ للغنيّ...وبغضاءُ السُّوَقِ موصولةٌ بالملوك"[١].

ومن طريف ما ذكره مما يدخل في هذا العلم بيانُ أن للحَمام أنسابًا يعرفُها أهلها، وقد عرض لرجل يُدعى مثنى بن زُهير قال عنه: إنه أعرف بأنساب بالحَمام من أبي بكر الصديق رضي الله عنه بأنساب الناس!(٢).

ولم يخلُ الحيوان من مسائل في العقائد والمذاهب –والجاحظ ابن بجدةِ الكلام فيها– فقد ذكر بعض عقائد الديصانية والدهرية، والزنادقة(٣)، وعرض لبعض عقائد المجوس والصابئة(٤). وذلك من أثر عنايته بالثقافات الأجنبية التي عمل على تعميمها، وأوحت إليه بأنماط من التفكير[٥].

وهو بهذا يصدق الحكم الطريف على مصنفاته بأنه: "لا يتحرج من الانتقال في النص الواحد بين الخليفة وبغال البريد"[٦].

ومن مظاهر التصنيف البيني عنايته بمسائل تتصل بتاريخ الأدب، فهو أول من وضع تاريخًا ظنّيًّا لبدء الشعر، قال: "فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومئةَ عامٍ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فمئتيْ عام"(٧)، وقال في موضع آخر: "وقد قيل الشعرُ قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطولَ مما بيننا اليومَ وبين أول الإسلام"(٨). ولم يفتِ الجاحظَ أن يبيّن شكَّه في بعض ما يروي من الشعر ونسبته إلى قائليه، بل إنه يوردُ أحكامًا مهمّة في هذه السبيل، كإشارتِه إلى أنه قد حُمل على عديّ بن زيد العبادي الحملُ الكثير[٩].

---

(١) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٩٦/٧.

٢() الجاحظ، مصدر سابق، ٢١٠/٣.

٣() انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٤٠/٥، ٤٦. ٤٤٢/٤.

٤() انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١٩٠/١، ٤٨١/٤، ١٢٥/١.

(٥) انظر: شارل بللا، مرجع سابق، ٢٥١.

(٦) انظر: محيي الدين اللاذقاني، مرجع سابق، ٢٨.

٧() الجاحظ، مصدر سابق، ٧٤/١.

٨() الجاحظ، مصدر سابق، ٢٧٧/٦.

(٩) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ١٤٩/٧.

ومن مظاهره كذلك ما نجد من نقدٍ أدبي، أشهره كلمته الذائعة: "المعاني مطروحة في الطريق..."(١)، وقوله: "عامة شعراء العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعرُ من عامة شعراء الأمصار والقُرى، من المولّدة والنابتة"(٢). وكذلك عرضه لبعض المسائل البلاغية، كالإسهاب والإطناب، وإيراده ضروبًا من التشبيهات البليغة(٣).

بل إننا نجدُ شيئًا يتصل بما يُدعى القارئ الضمنيَّ في نظرية التلقي، إذْ إنه قال: "وما أكثر ما يعرضُ في وقت إكبابي على هذا الكتابِ، وإطالتي الكلامَ، وإطنابي في القولِ بيتُ ابن هَرمةَ:

إن الحديثَ تغرُّ القومَ خَلوتُه حتى يلجَّ بهم عيٌّ وإكثارُ

...فانظر فيه نظرَ من يلتمسُ لصاحبه المخارجَ، ولا يذهبُ مذهبَ التعنّتِ، ومذهبَ من إذا رأى خيرًا كتمه، وإذا رأى شرًّا أذاعه"(٤).

ومن أطرف المظاهر البينية ذكره لأمر فيزيائي لا يُنازَع فيه، وهو أن الضوء أسبقُ من الصوت، قال: "ومتى رأيت البرقَ سمعتَ الرعدَ بعدُ، والرعدُ يكون في الأصلِ قبلَه، ولكنّ الصوتَ لا يصلُ إليك في سرعة البرق"(٥). وفي مواضع أخرى يشير إلى علة تلوّن السحاب، وأسباب اختلاف ألوان النار، وتحوّل الهواء ماءً والماءِ هواءً[٦]، وهذا الأمر يذكر بما كان الجاحظ يعتمده من النظر والتجربة، "فهو يجرب ويحلل، ويحيل قسمًا من منزله إلى مختبر للحشرات، ثم يقارن نتائجه ونتائج تجارب غيره"[٧].

١() الجاحظ، مصدر سابق، ١٣١/٣.

٢() الجاحظ، مصدر سابق، ١٣٠/٣.

٣() انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٩٢/١، ٧/٦، ٢١١/١، ٣٣١/٤.

٤() الجاحظ، مصدر سابق، ٢٠٧/٤-٢٠٩.

٥() الجاحظ، مصدر سابق، ٤٠٨/٤.

(٦) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٦٢/٧٥، ٦٥، ٩٠.

(٧) انظر: محيي الدين اللاذقاني، مرجع سابق، ٧٥.

ومن النادر في مصنفات القدماء التعرض لما يسمى اليوم (علم النفس الحيواني)، غير أن الجاحظ سابق فيه، فله إسهام في كشف بعض خصائص الحيوان النفسية[١]. وهو في ذلك كله لا ينظر النظر المجرّد، بل النظر الفلسفي الذي يتأمل الغرائب والعجائب، فيخضعها للتجربة، ويقوّمها بالبرهان[٢].

إن التوسّع في ذكر مظاهر التصنيف البيني لن يضيف شيئًا جديدًا، لأن شواهده ونماذجه في هذا الكتاب الموسّع أكثر من أن تُحصر، وقد يحسُن أن أكتفي هنا بالإشارة إلى أن فيه زَيدًا على ما سلف كثيرًا من المسائل الجغرافية، وخصائص بعض البلدان، وتأثير البيئة في الحيوان والشجر والإنسان، بل حتى إنه عرض لبعض الأجناس البشرية، وللطب وأمراض الإنسان والحيوان، وغير ذلك مما يطول بيانُه[٣].

وبعد فإن فكر الجاحظ لم يكن ضيّقًا، فقد كان يرى التاريخ سلسلةً من الأطوار تتضافرُ فيها العقول على إنجاز ما ينفع البشرية، وما يتراكم فيها من معارف نظرية وعملية صالحة في معاشها ومعادها[٤]. وكان أدبه مصوّرًا في حذق وتدقيق ما تقع عليه عينه وقلبه وحسُّه[٥].

بقي أمر على غاية الأهمية، وهو شيوع القول بأن الجاحظ يستطرد في كتبه كثيرًا، وهذا حقٌّ، غير أن كثيرًا مما عدوه استطرادًا ليس كذلك، بل هو مندرجٌ في موضوعاته التي يعرض لها، لأنه يدرك قيمة ما يذكره في بيان الأمر الذي يعرض له، ولا يستطرد بمعنى أنه يخرج عن الموضوع، أي أن يعنَّ له أمرٌ فيخرجَ عن جادة الكلام؛ استجابةً لشهوة الحديث، أو رغبةً في إفادة المتلقي بأمر لم يكن في حسبانه – أي الجاحظ– أنه سيعرض له.

ولهذا شواهد كثيرة في كتاب الحيوان، كخبر تسمية جيش ابن الأشعث بجيش الطواويس، الذي ذكرته آنفًا، فإن إيراده إياه ليس من الاستطراد في شيء، فإنه ذكره ليقول نقلًا عن جعفر بن سعيد: إن العامة لا تبصر الجمال إذْ نعتت فتيان ذلك الجيش بالطواويس؛ قال: "وإنما قالوا ذلك؛ لأن العامة لا تبصر الجمال،

---

(١) انظر: عبدالله باقازي، مرجع سابق، ١١١.

(٢) انظر: محمد كرد علي، أمراء البيان، ٣٥٥.

(٣) انظر: عبدالسلام هارون، مرجع سابق، ١٢.

(٤) انظر: صالح بن رمضان، مرجع سابق، ٣٥٨.

(٥) انظر: محمد كرد علي، مرجع سابق، ٢٩٥.

ولفَرسٌ رائعٌ كريمٌ أحسنُ من كل طاووس في الأرض...وإنما ذهبوا من ذلك إلى حسن ريشه فقط، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه"[١]. فهذا إذن في حاقِّ موضوعه، ولم يكن مستطردًا.

ومن ذلك أنه قال عن بعض من ذكرهم: إنه كان "قليلَ الزللِ والزيغِ في باب الصدق والكذب" ثم أردف بما يُظنّ استطرادًا: "ولم أزعم أنه قليل الزيغ والزلل على أن ذلك قد كان يكونُ منه، وإن كان قليلًا، بل إنما قلتُه على مثل قولك: فلانٌ قليل الحياء، وأنت لستَ تريدُ هناك حياءً البتةَ"[٢]. فهذا بيانٌ ضروري أدتْه إليه مخافتُه ألا يُفهم كلامه.

ومن شواهد ذلك أيضًا أنه –وهو يعرض للعصفور– خرج خروجًا مقصودًا إلى بعض طرائف عبدالأعلى القاصّ، فذكر أنه قيل له: "لم سُمي العصفور عصفورًا؟ قال: لأنه عصى وفرّ...قيل: لم سُمي السلوقي سلوقيًّا؟ قال: لأنه يستلّ ويَلقَى"[٣]. فهل كان بذلك إلا محقِّقًا بعض مقاصده التي أبانها في مطلع كتابه.

ومن ذلك أيضًا خروجُه إلى شرح بعض الألفاظ، والتوسّع فيها، حتى إنه لما ذكر كثرة أسماء الحمّام بيّن أمرًا مهمًّا، وهو أن أكثر الأسماء "كناية واشتقاق"، قال: "وهذا أيضًا يدلّك على شدّة هربهم من الدناءة والفسولة، والفُحش والقذع"[٤]. وكلامه هذا ليس من الاستطراد في شيءٍ، بل هو مُدرجٌ في مظاهر البينية التي هي جزءٌ من تكوينه الفكري، ومقاصده في التصنيف،؛ وإشارته هذه داخلة في علم اللغة الاجتماعي.

إن القول بأن من سمات أسلوب الجاحظ الاستطراد، وأنه كثيرٌ في مصنفاته[٥]، أوهم بعض المتلقين أنه يخبط خبط عشواء، أو أنه كحاطب الليل، كلا، لقد كان عمل أبي عثمان –على ما جاء في المثل– (عملُ من طبّ لمن حبّ). نعم هو عملُ من أدرك أن العلم واحدٌ وإن تعدد، وأن الأجدى في التصنيف أن يُسار فيه على نمط يجمع العلوم في وعاء واحد، ويصل بعضها ببعض.

---

(١) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢/٢٤٥.

(٢) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٢/٢٢٩.

(٣) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٥/٢٢٥-٢٢٦.

(٤) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٥/٢٩٥.

(٥) بل إنه في إحدى رسائله قال قولًا يكشفُ حرصَه على ألا يخرج عن موضوعه: "**وفي هذا الموضع كلامٌ حسنٌ، ولكنا ندعُه؛ مخافةَ أن نخرجَ إلى غيرِ البابِ الذي ألّفنا له هذا الكتاب**". الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٤/١٣٢.

لقد أجاب الجاحظ عن سؤال (ما يُحتاج إليه وما لا يُحتاج إليه) في إيراده الكلمة المشهورة التي قالها أبو شَمِر: "إذا كان لا يُتوصل إلى ما يُحتاجُ إليه إلا بما لا يُحتاجُ إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاجُ إليه"[١]، فهو يبيّن بذلك صراحة لا لبسًا أن كلّ ما في كتابه –إلا ما ندر– مقصودٌ مرادٌ، وليس هو استطرادًا؛ لأنه يُحتاج إليه، وكان قال قبل هذا بأسطر كلامًا يكشف منهجه البيني هذا، قال: "وقد غلّطك فيه [يريد في ذمّك إياه، وهو يخاطب قارئًا افتراضيًّا على العهد به] بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مزحٍ لم تعرفْ معناه، ومن بَطالةٍ لم تطّلعْ على غورها، ولم تدرِ لم اجتُلبت، ولا لأيّ علةٍ تُكُلّفت، وأيُّ شيءٍ أُريغَ بها، ولأي جدٍّ احتُمل ذلك الهزْل، ولأيّ رياضةٍ تُجُشّمتْ تلك البطالة، ولم تدر أن المزاحَ جدٌّ إذا اجتُلب ليكون علةً للجد، وأن البطالة وقارٌ ورزانةٌ، إذا تُكُلّفتْ لتلك العاقبة"[٢].

حقًّا إن الجاحظ في منهجه البينيّ هذا مدركٌ أن الناسَ طُبعوا على محبة الإخبار والاستخبار، لكنه لم يكتفِ بالخبر، بل أضاف إليه تحليلًا اجتماعيًّا، وثانيًا سياسيًّا، وثالثًا اقتصاديًّا، وبعض التحليل النفسي[٣]؛ وعليه يمكن القول بأنه كان أبا التصنيف البيني في التراث العربي، ورائدَ هذا الضربِ الموسوعي من التأليف، وعلى أهمية أثره لم يأتِ بعده من يتقرّى سبيلَه حقَّ التقرّي؛ وسرّ ذلك بيّنٌ؛ فإن هذا الضرب من أصعب ضروب التأليف؛ لحاجة المصنِّف فيه إلى معرفة واسعة، وعلم غزير، ونظر وتجربة، وهل غيرُ أبي عثمان يتّصف بتلك الصفات العالية، ويجمع تلك المعرفة المتشعّبة؟

سئل طه الحاجري عن سبب انقطاعه للجاحظ دون غيره من كتاب العربية، فقال: هذا رجلٌ لا يشيخ أدبه، ولا تُملُّ صحبته، وسوف تجده جديدًا كلما عدتَ إليه[٤].

---

(١) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٣٨/١.

(٢) انظر: الجاحظ، مصدر سابق، ٣٧/١.

(٣) انظر: محيي الدين اللاذقاني، مرجع سابق، ٧٦.

(٤) انظر: محيي الدين اللاذقاني، مرجع سابق، ٢٧.

مصادر ومراجع

١) شارل بللا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ط الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٢) صالح بن الهادي رمضان، التفكير البيني، أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية وآدابها، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، د.ط، ١٤٣٦هـ.

٣) عبدالسلام هارون، تهذيب الحيوان، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ط الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٤) عبدالله باقازي، القصة في أدب الجاحظ، دار تهامة، جدة، ط الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥) عمْر بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.

٦) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٧) محمد المبارك، فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ، دار الفكر، دمشق، ط الثانية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٨) محمد بن حبيب، المُحَبّر، رواية أبي سعيد السكري، اعتنى بتصحيحه: الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ط، د.ت.

٩) محمد كرد علي، أمراء البيان، دار الأمانة، بيروت، ط الثالثة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

١٠) محيي الدين اللاذقاني، آباء الحداثة العربية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

١١) مركز الدراسات الواعدة في البحوث الاجتماعية ودراسات المرأة، الدراسات البينية، جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن، د.ط، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

١٢) ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت، ط الثانية، ١٩٨١م.

١٣) نور الدين بنخود، الدراسات الأدبية والتخصصية البينية، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، د.ط، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

١٤) نور الدين بنخود، دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، د.ط، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.